
المنظومة
ALMANDUMAH



دور ملوك السودان في نشر الإسلام

في إفريقيا جنوب الصحراء

بين القرنين الخامس و التاسع للهجرة/11و15م

الأستاذ:شعباني نور الدين

إن الشيء الذي تتفق حوله الدراسات التاريخية، هو أن الإسلام و إن اتخذت الفتوحات العسكرية سبيلا لشق طريقه في بعض أقطار المعمورة و خاصة تلك كانت تسودها إمبراطوريات و ممالك عظيمة و قوية؛ مثل بلاد الفرس و الرومان و بلاد الفرنجة، إلا إنه لم ينتشر إلا بالطرق السلمية و الدعوة في أغلب أنحاء الأرض. و من أشهر المناطق التي مثلت فيها الدعوة السلمية النموذج الحقيقي لانتشار الإسلام، و برزت فيها قدرة المسلمين على نشر عقيدتهم بالإقناع و الحجة و حسن المعاملة،هي إفريقيا السوداء أو ما يعرف بإفريقيا بجنوب الصحراء و التي يصطلح على تسميتها في أدبيات المؤرخين العرب ببلاد السودان. لقد لعبت تجارة القوافل و الفقهاء دورا كبيرا في نشر الإسلام في الديار السودانية، حيث نابت الأسواق عن ميادين الوغى و نابت الأمانة و الصدق و حسن المعاملة عن السيف في نشر عقيدة التوحيد.و قد أشارت الدراسات التاريخية كثيرا للدور الذي لعبه فقهاء الاباضية و المالكية في نشر الإسلام في السودان الغربي، و كذا دور المرابطين في القضاء على الوثنية والمساهمة في قيام دول إسلامية هناك1. لكننا نلاحظ بأن هناك إجحاف كبير من طرف المؤرخين في إبراز دور ملوك الممالك السودانية المسلمين، الذين يعود لهم الفضل الكبير في تدعيم أركان هذا الدين في ربوع أوطانهم، و غرس قيمه في صفوف شعوبهم و حرصهم الشديد على تبليغ هذا الأمر. لهذا سنحاول من خلال هذه الدراسة أن نسلط الضوء على الطريق الذي وصل به الإسلام إلى هؤلاء الملوك، و مجهوداتهم في نشر الإسلام، ثم دورهم بعد ذلك في توطيد أركانه و إرساء دعائم حضارة إسلامية في إفريقيا السوداء على أنقاض الوثنية.

1. اعتناق قبائل الصحراء للإسلام و دورهم في نشره باتجاه الجنوب:

لقد كان للاحتلال الروماني لشمال إفريقيا يشكل حاجزا مهما أمام السودان الغربي و الأوسط، (2) و مع نهاية العهد الروماني عرفت القوافل التجارية و معها الجمال الطريق العابر للصحراء، معلنة عن ثورة حقيقية قلبت نمط الحياة في الصحراء الكبرى، و امتدت آثارها إلى غاية القرن التاسع للهجرة مع اكتشاف البرتغاليون للطريق البحري. فلقد جلب الجمل نشاطا جديدا للصحراء و سكانها من البربر من خلال انتعاش عدد من المدن التجارية على حواف الساحل الصحراوي، كما سمح أيضا بإقامة اتصال دائم بين جنوب الصحراء و الحضارة القائمة في شمالها (3) .وإذا تحدثنا عن حضارة شمال الصحراء فإننا نقصد بالطبع الحضارة الإسلامية التي بدأت تبسط جناحيها على شمال إفريقيا منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. إن الشيء الجدير بالإشارة هو أن الفتوحات الإسلامية التي قادها العرب لم تتمكن من نقل هذا الدين الجديد إلى ما وراء الصحراء. (4) فكان للبدو من بربر الصحراء الدور الرئيسي في الاضطلاع بهذه المهمة ابتداء من القرن الخامس للهجرة/11م. فلقد كانت أول حالات اعتناق الإسلام التي شملت سكان السودان الغربي إنما عن طريق قوافل التجار البربر التي كانت تتردد مابين المغرب و بلاد السودان، و لما كانت الصحراء هي وسيلة الربط الرئيسية بين الإقليمين فقد كان من الطبيعي أن يقوم أهل الصحراء بالدور الرئيسي في إقامة العلاقات التجارية فيما بين شمال الصحراء و جنوبها، و من ثم في نشر الاسلام(5) .

لقد كان البدو الرحل الصحراويون المعروفون بالملثمين أو قبائل صنهاجة، يقطنون الصحراء الكبرى على امتداد الطريق الممتد من موريتانيا إلى أودغست،(6) و كانوا يسيطرون على الصحراء و يتحكمون في القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان(7) خاصة عندما أحكموا سيطرتهم على أودغست سنة350هجرية/ 961 ميلادية.(8) و كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء عبر طرق و مسالك و واحات و مناجم الملح ــ الذي كان أثمن سلعة يصدرونها إلى بلاد السودان ــ **(9)** في رحلة شاقة و صعبة و جمة المخاطر ، و لكنها مربحة. **(10)** فلقد كانت تلك الأرباح كفيلة

بأن تجعل التجار يولعون بالدخول إلى أرض السودان.لذلك كثرت الحركة التجارية ، و اكتظت المدن التجارية بمختلف الجاليات المتاجرة. **(11)** و باعتناق قبائل صنهاجة الإسلام على يد عقبة بن نافع الفهري (12) تحولت إلى صاحبة رسالة حضارية، تمثلت في نشر الإسلام بين الأقوام السودانية الذين كانوا يحتكون بهم في الأسواق و المراكز التجارية المنتشرة في الحواف الجنوبية للصحراء، و على تخوم بلاد السودان.**(13)**

هكذا فقد انتشر الإسلام بين الزنوج انتشارا سريعا و هادئا، دون اللجوء إلى العنف. فلقد كان التجار المسلمون في تنقلهم بين المراكز التجارية و احتكاكهم بالزنوج، يؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصي و أمانتهم و نظافتهم ،و كثيرا ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج في الإسلام، ذلك أن عددا كبيرا من هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة و العلم. **(14)**

كما لعب الفقهاء الإباضيون الذين استقروا على أطراف الصحراء في واحات فزان و جبل نفوسة و غدامس، وواحات الجزائر منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، في اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة و زناته للمذهب الاباضي، و تخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء، فانضموا هم أيضا إلى النشاط الدعوي بالموازاة مع نشاطهم التجاري**(15)** كما أن قيام دول خارجية في المغرب الأوسط والأقصى كدولة بني مدرا الصفرية بسجلماسة، و دولة بني رستم بتيهرت، كان له أيضا تأثيرا بالغا في انتشار الدعوة الاباضية في صفوف التجار، على الأقل إلى غاية نهاية القرن الرابع للهجرة /10 ميلادي،وهي الفترة التي كانت عواصمهما تمثل أهم نقطتين تنتهي إليهما طرق القوافل التجارية المتجهة نحو أرض السودان. **(16)** و كانت أسرة بني الخطاب الاباضية في زويلة (فزان) تسيطر على الطرف الشمالي لطريق التجارة الهام الواصل بين ليبيا و حوض بحيرة التشاد.(17) و قد ورد في المصادر الإباضية بأن هناك عدد كبير من أئمتهم و فقهائهم قد زاروا غرب إفريقيا، و قد أسلم على أيديهم عدد مهم من السودان **(18)**، و خاصة زعماء القبائل و أمرائهم الذين كانوا أكثر احتكاكا بهؤلاء التجار العلماء و أشد المعجبين بهم، لذا تبوؤوا مكانة مميزة لديهم. **(19)** و رغم أننا

لا نرى اليوم أي آثار للمذهب الاباضي في الصحراء الجنوبية و إفريقيا الغربية ، إلا أننا نعتقد بأنها اختفت تحت تأثير حركة المرابطين السنية المالكية.بالإضافة إلى زحف قبائل البدوية لبني هلال العربية على شمال إفريقيا و التخوم الشمالية للصحراء ابتداء من القرن الخامس للهجرة مما أدى إلى أفول نجم المجموعات الاباضية. **(20)** و عموما فأن الإسلام ظل ينتشر بين صفوف الشعوب السودانية من التجار أولا، ثم انتقل إلى طبقة الحكام و رجال الحاشية، لكن بوتيرة أقل ، بحيث استغرقت هذه الفترة حوالي قرنين من الزمن،أي من القرن الثني للهجرة/6م إلى القرن الرابع للهجرة/10م. لكن بمجرد انتهاء القرن الرابع وبداية القرن الخامس للهجرة حتى عرفت أرض الصحراء الكبرى حركة سياسية اتخذت طابعا دينيا، و عرفت على إثرها أرض السودان تسارع في وتيرة أسلام أهلها، ألا و هي حركة المرابطين.حيث عرف الإسلام بفضلها تغلغلا حقيقيا في السودان الغربي والأوسط، فانتشر لأول مرة في منطقة السنغال الأعلى و السنغال، و شواطئ بحيرة التشاد، و اكتسب الدين الإسلامي بذلك اعترافا رسميا في المجتمعات الإفريقية بعدما قبل به الحكام و الأمراء. **(21)** فبعدما تزعم الفقيه السوسي عبد الله بن ياسين قبائل جدالة الصنهاجية ثم دخلت قبيلة لمتونة في دعوته، و غزا قبائل الصحراء، ودانت له و لدعوته المرابطية، قام خليفتاه يحي بن عمر و أخوه أبي بكر بن عمر بتوجيه دعوتهما إلى داخل الصحراء، حيث توجه أبو بكر بن عمر و ابنه يحي على رأس جيش من المرابطين باتجاه بلاد السودان لنشر الإسلام في مملكة غانة الوثنية. **(22)** حيث تم إخضاعها الواحدة تلو الأخرى. **(23)** و كان الأمير أبو بكر يخير أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الحرب إلى أن سقطت العاصمة الغانية كومبي صالح في أيدي المرابطين عام 469ه/1076م، **(24)** بعدما قتل عدد كبير من سكان غانة السوننكي. **(25)** و هنا يجب أن نشير إلى أن المرابطين قاموا بعمل دعوي سلمي داخل مملكة غانة التي سقطت بين أيديهم و لم يرغموا سكان غانة السوننكي على إتباع الدين الجديد كما تدعيه بعض الدراسات الغربية، حيث قام أبو بكر بن عمر بإقامة عدد من الرباطات و المساجد و بالتالي كثر عدد الداخلين إلى الإسلام،كما سمح لملكهم بالبقاء في الحكم تابعا للمرابطين ولم يعزله.**(26)**

و مهما يكن فإننا يجب أن تعترف بأن موجة اعتناق الإسلام الأولى في بلاد السودان، سواء كانت بدور من التجار أو الفقهاء، أو المرابطين، لم تشمل كل شرائح المجتمع السوداني، أو على الأقل لم يكن إسلام من اسلم منهم إلا إسلاما سطحيا، بينما نجد الفئة التي كانت السباقة لاعتناق الإسلام و فهمته و اقتنعت به، و من ثم وعت الرسالة التي يرمي إليها هذا الدين ، إنما هي الطبقة الأرستقراطية من التجار الكبار و رجال الدولة و في مقدمتهم فئة الملوك والأمراء الذين لم يكتفوا باعتناق الإسلام و الالتزام بتعاليمه فقط، و إنما تحولوا إلى دعاة حقيقيين من خلال مساهمتهم في نشر الإسلام في صفوف رعاياهم الذين بقوا متمسكين بدياناتهم التقليدية القائمة على الوثنية و السحر و عبادة أرواح الأجداد و غيرها. أو أولئك الذين لم يستوعبوا بعد مقاصد هذا الدين الجديد،كما شارك ملوك آخرون في الجهاد ضد الكفار من اجل إعلاء كلمة التوحيد.

2. إسلام ملوك السودان:

لقد عرف السودان الغربي و الأوسط ممالك وثنية قوية قبل انتشار الإسلام في أرضهم، وكانت هذه الممالك الوثنية على قدر كبير من التنظيم و التطور، لذلك كانت لملوكها علاقات تجارية و سياسية متينة مع دول المغرب الإسلامي. فمنذ أيام دولة بني مدرار في سجلماسة كان أئمتها يربطون علاقات تجارية منتظمة مع السودان الغربي منذ القرن الثاني للهجرة/8م**(27)** كما أن المصادر الاباضية تخبرنا بأن أئمة الرستميين بتيهرت قد ربطتهم علاقات دبلوماسية وتجارية مع مملكة غانة الوثنية آنذاك.**(28)** بالإضافة إلى ارتباطهم بتجارة مع مملكة الكانم **29** و مع مملكة سونغاي**30**.

ولهذا أمكننا القول بأن ملوك السودان كانوا على اتصال واحتكاك دائم بالمسلمين المغاربة منذ وقت مبكر، و هو ما أدى إلى حدوث تعايش كبير بين هؤلاء الملوك والجالية المسلمة إلى درجة أن المؤرخ و الجغرافي الأندلسي أبا عبيد البكري ذكر بأن مملكة غانة الوثنية كانت تضم مدينتين واحدة يسكنها المسلمون، و يوجد بها إثنى عشر مسجدا، و بها الأئمة و الراتبون و المؤذنون و الفقهاء و حملة العلم، و أخرى

خاصة بالملك و تحتوي على مسجد واحد يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين.**31**

وبذلك تكون الجالية المسلمة قد أثرت كثيرا على هؤلاء الملوك الوثنيين32،حتى أصبحوا معجبين كثيرا بهم و يقدرونهم و يقتدون بهم، بل ويعتمدون عليهم في إدارة شؤون دولتهم، حيث أن البكري يذكر بأن ملك غانة كان يتخذ ترجمانه و بيت ماله من المسلمين، وأن أكثر وزرائه كانوا من المسلمين33. كما أصبحوا يتشبهون بهم لحسن أخلاقهم و صدقهم و أمانتهم وحسن معاشرتهم، فأصبح ملوك غانة يقتدون بالمسلمين حتى في لبسهم المخيط عكس ما كان عليه سائر الرعية من لبس الملاحف القطنية و الحرير**34**، فكان حري بهم أيضا أن يتبعوا دينهم أيضا.

ولا يعني ذلك أن هؤلاء الملوك كانوا بالضرورة مسلمين شديدي الورع أو عميقي الإسلام، فقد كان عليهم أن يراعوا أيضا الأعراف المحلية والمعتقدات التقليدية لأغلبية رعاياهم غير المسلمين الذين كانوا يرون في ملوكهم تجسيدا أو واسطة لقوى عليا أسمى من الطبيعة، كما أنه لم يكن هناك من الملوك من له السلطة لفرض الإسلام أو الشريعة الإسلامية دون التأثير بذلك على ولاء غير المسلمين له.**35** وهذا ما يفسر بقاء الشعائر و الطقوس الوثنية في بلاطات ملوك مسلمين ورعين أمثال منسا موسى ملك مالي أو الأسكيا الحاج محمد توري ملك سونغاي.

ولقد كان أول من اعتنق الإسلام من ملوك مالي حسب البكري يدعى المسلماني**36** والذي أسلم على يد أحد المسلمين الذين كانوا يعيشون في بلاده، و هو من قراء القرآن المعلمين للسنة في أرض مالي، و قد أجدبت الأرض عاما بعد عام، فقدم سكان البلد القرابين لآلهتهم حتى كادوا يفنونها ، لكن دون جدوى، إلى أن شكا ملكهم أمره لهذا الضيف المسلم الذي اقترح عليه أن يؤمن بالله و يقرّ بوحدانيته و بمحمد رسول الله، مقابل أن يدعو له ربّه لفك عنهم كربتهم. فأسلم ملك مالي و أخلص نيته، و تعلم كتاب الله و شرائعه و تطهّر، و صلى ليلة الجمعة إلى جانب الرجل المسلم و هو يدعو الله طوال الليل، فما إن حلّ الصباح حتى سقاهم الله مطرا.فأمر الملك السوداني بكسر

الدكاكير التي كانوا يعبدونها، و إخراج السحرة من بلاده ، و صحّ إسلامه، و أسلمت عشيرته و حاشيته، بينما بقي أهل مملكته مشركين.**37**

إن البكري لم يذكر لنا اسم ذلك الفقيه المسلم الذي اسلم على يديه ملك مالي أو(ملل حسب ذكر البكر)، لكننا نجد في المصادر الإباضية رواية مشابهة لرواية البكري لكنهم ينسبون أحداثها لأحد أئمتهم و هو علي بن يخلف، إلا أنهم يقولون بأنها حدثت مع ملك غانة و ليس مع ملك مالي.**38** و هذا يعود ربما إلى كون مالي كانت تابعة خلال الفترة التي جرت فيها الأحداث إلى إمبراطورية غانة.كما أن مملكة غانة كانت مشهورة لديهم بحكم العلاقات التجارية و الدبلوماسية التي كانت تربطها بهم.**39** فابن الصغير يذكر بأن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب أوفد سفيرا إلى ملك السودان يدعى محمد بن عرفة حاملا معه هدية. و رغم أن ابن الصغير لم يذكر اسم الملك السوداني لكن فترة حكم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (180و**220**هجرية/**796** و **844** ميلادية) توافق فترة وجود إمبراطورية غانة كأعظم دولة في السودان الغربي بينما لم تكن قد ظهرت بعد مملكة مالي. ما يجعلنا نميل إلى القول بأن الملك الذي زاره الإمام الرستمي علي بن يخلف هو ملك مالي وليس ملك غانة كما تهب إليه المصادر الاباضية.

و على كل حال فإن هذه الرواية تبين لنا دور الفقهاء المسلمين في إسلام ملوك السودان وحاشيتهم، و درجة تأثيرهم فيهم و ثقة أولائك الملوك بهم، كما تبين لنا من جهة أخرى أن الملوك و حاشيتهم المقربين كانوا أول من اعتنق الإسلام، بينما تأخر إسلام رعيتهم، أو لم يكن بنفس درجة ملوكهم. كما يشير البكري أيضا إلى ملك إمارة الوكن بغانة و هو فنمر بن بسي الذي كان مسلما و لكنه كان يخفي إسلامه عن رعيته**40**، و هو ما يؤكد ما ذكرناه سابقا من أن ملوك السودان كانوا يرعون رغم إسلامهم مشاعر و معتقدات أغلبية رعاياهم المتمثلة في عباد الأوثان و القوى السحرية وأرواح الأجداد و غيرها من المعتقدات التقليدية السائدة. و منه يمكن القول بأن الإسلام في السودان كان في البداية ديانة الملوك و الطبقة الأرستقراطية، بينما الطبقات الشعبية العامة لم تكن قد استوعبت بعد تعاليمه و بقيت وفية لوثنيتها، و هم ما الملوك

يضطلعون بمهمة نشر الإسلام في أوساط شعوبهم،و هو ما جعلهم يتحولون إلى دعاة حقيقيين، و أصحاب رسالة حضارية ورثتها بعدهم الأجيال المتعاقبة من ملوك السودان المسلمين،رغم لم يكونوا من الفقهاء الكبار، وأن كل ما كانوا يعلمونه كانوا يتلقونه من الوافدين عليهم من رجال الدين.**41** و كان منهم من رفع راية الجهاد في سبيل التمكين للدين الإسلامي في ديار السودان. ولقد كانت أسرة ندياي التكرورية من أوائل الأسر الحاكمة في السودان الغربي التي اعتنقت الإسلام، فقد اعتنقته في وقت مبكر، و بدون إكراه، و حتى قبل الغزو المرابطي لغانة، والتي فهم ملوكها الإسلام و اندمجوا بسرعة في حركته التي شملت السودان الغربي منذ القرن الخامس للهجرة بقيادة المرابطين، حيث دخل ملكهم " لبي بن وارديابي" أو "وارجابي" في حلف مع المرابطين ضد كفار غانة.**42** و بالتالي بدأت مرحلة جديدة من مراحا انتشار الإسلام في السودان الغربي و الأوسط مراحل انتشار الإسلام في السودان الغربي و الأوسط، و هي المرحلة التي لعب فيها ملوكهم الدور الأساسي في التمكين لهذا الدين و إرساء أسس الحضارة الإسلامية في هذه الأرض.

كما كان لظهور طبقة من العلماء و رجال الدين المسلمين الذين ينتمون إلى أصل سوداني حدثا مهما في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، حيث بدأ ينتشر على يد أناس من أهل البلاد يعرفون اللغات والأعراف و المعتقدات المحلية، و امتد تأثير هؤلاء إلى غاية السودان الأوسط ، حيث كانت المنطقة الممتدة من بحيرة التشاد إلى غاية حوض النيجر الأوسط و خاصة إقليم الهوسا تشكل منطقة صعبة لانتشار الإسلام إلى غاية القرن الثامن للهجرة/14ميلادي. حيث استقبلت موجات من المسلمين السودان من جماعة الونجارة(ونغارة) التجار الذين تمكنوا من نشر الإسلام بين التجار خاصة و بين الطبقات الحاكمة ، ومنها قصر الملك "ياجي" الذي أصبح مسلما متشددا يرغم رعاياه على إقامة الصلاة، و أخذت تدخل إلى بلاده كتب أسلامية حملها معهم الفلاتة و تضم علم الكلام و أصول اللغة.**43**

أما في مملكة سونغاي فقد أسلم الملك "ديا أكوسي" الذي استقر في غاو حوالي عام 4001هجرية/ 1010م، لكن في تلك الفترة أيضا مازال الإسلام يمس فقط العائلة الملكية و الطبقة الأرستقراطية التي يبدو أنها أعجبت كثيرا بسلوك التجار المسلمين

الذين كانت تعج بهم عاصمتهم، و بهيئتهم و طريقة لبسهم و أحصنتهم ، أكثر من شيء آخر حسبما يذهب أليه كورنفان.**44**

3. دور ملوك السودان في نشر الإسلام:

حسب المؤرخ الأندلسي أبي عبيد البكري فإن ملوك التكرور المنتمين إلى أسرة ندياي كانوا أول من اعتنق الإسلام من ملوك السودان.**45** و حسب المؤرخ الانجليزي سبنسر تريمنغهام فإن ذلك يعود إلى كون عبد الله بن ياسين اختار منطقة الساحل الجنوبي لنهر السنغال موقعا لإقامة رباطه الشهير ، و هو ما أدي إلى انتشار التأثير الإسلامي في هذه المنطقة منذ وقت مبكر.**46** لذلك اعتنق الملك التكروري وارديابي الإسلام لما وجد في عقيدته من جاذبية و تجانس ، بالإضافة إلى ما كان يمثله له الإسلام من رقي اجتماعي و تفتح على العالم، فوجدت بذلك دعوة عبد الله بن ياسين استجابة واسعة من أهل التكرور و في مقدمتهم أسرة آل وارديابي، وخاصة الملك.**47** و ذلك قبل أن يستولي ابن ياسين على مدينة أودغست.**48** و قد لعب ابنه" لبي بن وارديابي"من بعده دورا كبيرا في نشر الإسلام من خلال تحالفه مع جيش المرابطين في حربهم ضد خصومهم من جدالة و المرتدين عن دعوتهم و ذلك عام 448هـ/1056م ، في معركة تبفريلي ، و هي المعركة التي قتل فيها الزعيم اللمتوني يحي بن عمر.**49** و بالتالي فإن اسم مملكة التكرور كان أكثر الممالك شهرة عند المصادر العربية **50** بسبب أسبقية شعبها في اعتناق الإسلام، وظلوا من أشد الشعوب تمسكا بتعاليمه.

إن ملوك و على رأسهم "وارديابي" واصلوا عملية الدعوة داخل مملكتهم، وحسب البكري دائما فإن مدينة التكرور كان أهلها السودان على ما كان عليه سائر السودان من المجوسية و عبادة الدكاكير**51** إلى غاية أن تولى الحكم فيهم وارجابي سنة432هـ/1041م، حيث اعتنق الإسلام و أقام في مملكته الشريعة الإسلامية ، و فرض على شعبه اعتناقه.**52** و بالتالي فقد أصبحت جميع المدن و الإمارات الهامة التابعة لمملكة التكرور و الممتدة من التكرور إلى غاية سيلا(غالام) كلها مسلمة على يد الملك وارديابي بن رابيس، كما أن ملك سيلا رفع هو بدوره راية الإسلام في إمارته و أصبح يحارب كفارها الساكنين في مدينة قلنبو.**53**

و في الفترة مابين القرنين الخامس والسابع للهجرة/11 و 14 للميلاد زحف شعب الولوف أو(الجولوف)على منطقة التكرور، و أصبح يشكل معظم سكانها**54** إلى أن أسس أحد رجال الدين التكرور يدعى" نديا ديان ندياي"إمارة الجولوف، و التي بدأت تفقد تدريجيا الآثار الإسلامية التي عرفها ملوك التكرور الأوائل.**55** لكن خلال منتصف القرن السابع للهجرة/ 13 للميلاد قام إمبراطور مالي المشهور "سوندياتا كيتا" بإعادة فتح مملكة التكرور من جديد التي يبدو أنها كانت قد تحالفت مع ملك مملكة الصوصو الوثني" سومنغورو كانتي".**56**

أما بالنسبة لملوك الماندي أو ما يعرف بمملكة ملل، أو مالي، فإن أول من أسلم من ملوكها فكان يدعى " المسلماني" حسب البكري و "برمندانة" حسب ابن خلدون،والذي أسلم كما رأينا على يد أحد فقهاء الاباضية في منتصف القرن الخامس للهجرة/11م، و ينتمي هذا الملك إلى أحدى الأسر المالنكية المشهورة في منطقة النيجر و السنغال العلويين،و التي يعود لها الفضل في تأسيس مملكة مالي الإسلامية، و التي حكمتها مابين القرنين الخامس و التاسع الهجريين/11 و 15م، و هي عائلة كايتا.**57** التي استقرت على ضفاف نهر السنكراني (أحد فروع النيجر) و التي لعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام في مملكة مالي و السودان الغربي ككل.

لقد ذكر ابن خلدون بعض أسماء الملوك من هذه العائلة الذين أدوا فريضة الحج، و منهم الملك برمندانة الذي كان أول من أسلم و أول من حج منهم، ثم اقتفى سننه في الحج ملوك مالي من بعده.**58** كما حج منهم الملك منسا أولي ابن ماري جاطة (سوندياتا)**59** أيام الظاهر بيبرس، و حج بعده مولاهم ساكورة الذي كان قد أصبح ملكا بعدما استولى على حكم مالي ، بالإضافة إلى الملك الحاج منيا موسى.**60**

و قد تحدثت المصادر العربية كثيرا عن الدور الذي لعبه ملك مالي منساموسى أو(كونكو موسى) في نشر الإسلام في إمبراطوريته، و اهتمامه البالغ بتطبيق شعائر الإسلام بين رعيته، و كذا اهتمامه بأداء فريضة الحج حتى لقب بالملك الحاج، حيث كان عندما يخرج إلى الحج يقوم ببعض الأعمال الجليلة حتى يتقبل منه الله حجه، مثل بنائه لمساجد عديدة كمسجد تمبكتو، دوكوري، كوندام، و مسجد ديري، بالإضافة إلى تسخيره لإمكانيات ضخمة جدا للحج ، فكان يحمل معه في تلك الرحلات

المقدسة،قوات عسكرية كبيرة،و عدد كبير من العلماء و القضاة،و الخدم و الجواري، و كميات كبيرة جدا من الذهب إلى درجة كانت تؤدي إلى انخفاض قيمة ذلك المعدن النفيس في القاهرة لما كان يحل بها.**61** و من مظاهر تدين هذا الملك وحرصه على تطبيق شرائع الإسلام تلك الحادثة التي حصلت له بالقاهرة هندما قصدها في طريقه إلى الحج، فبينما كان الملك منسا موسى في القاهرة عام 724هـ/1324 فبعث إليه السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون شخصا يستدعيه إليه و عندما وصل إلى قصره رفض منسا موسى السجود أمام ملك مصر، و قال:((أنا مسلم و لا أسجد إلا أمام الله.))**62** كما تحدث الملك منسا موسى مرة و هو بالقاهرة مع الفقيه "ابن أمير حاجب" في نفس الزيارة عن عاداتهم بمالي و المتمثلة في أنه إذا نشأ لأحد من رعيته بنتا حسناء قدمها للملك أمة فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين، و عندما نهاه عن ذلك ابن أمير حاجب انتهى عنه و أعلن ترك ذلك و رجوعه عنه رجوعا كليا.**63** كما عرف عنه جهاده في سبيل الله ، حيث كان يحارب طائفة من الشعوب الوثنية المتوحشة تعرف بالدمادم.**63** و هم يشبهون بالتتر ، و يعرفون أيضا باللملم.**64**

و خلال القرن الثامن للهجرة/ 14م زار ابن بطوطة مملكة مالي التي كان يحكمها آنذاك شقيق الملك منسا موسى وهو منسا سليمان، فنقل إلينا وصفا دقيقا عن هذا الملك الذي كان أشبه بسلاطين المسلمين و خلفائهم من خلال تدينه ، و حبه للعدل و تقربه من الفقهاء و العلماء و تعظيمه لهم . و كان حريصا على الصلاة ، حيث ذكر ابن بطوطة أنه إذا كان يوم الجمعة، و لم يبكر الإنسان إلى المسجد فإنه لن يجد أين يصلي لكثرة الزحام، كما أضاف عنه بأنه كان يأمر بربط أبنائهم يوم العيد بسبب عدم حفظهم لآية من القرآن.**65**

وعرف عن ملوك مملكة سونغاي أيضا تمسكهم بالدين الإسلامي ونشره في أركان مملكتهم، فلقد كانوا يخرجون كل سنة خارج مدينة جاو لملاقاة الحجاج و مدهم بالكسوات و اللباس ، و يسألونهم الدعاء لهم، و يتبركون بهم.**66** ومن مظاهر جهادهم في سبيل إعلان كلمة هذا الدين في إفريقيا جنوب الصحراء ما تم العثور عليه في سنة 1939م في بلدة "ساني" ــ و هي تبعد عن مدينة جاو بأربعة أميال ــ حيث وجدت بها لشواهد لقبور ملكية يعود تاريخها إلى بداية القرن السادس للهجرة/13م ،

كتب عليها عبارة(هنا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله و يرقد الآن في رعايته).كما كتب تحت هذه العبارة سنة 494هـ/1100م، و كتب أيضا اسم أبي عبيد الله محمد ، ثم أضيفت إليه كلمة " إن الملك مات من أجل انتشار الإسلام في جاو".**67** و كان ملوك جاو أشد الملوك اقتداء و تشبها بالملوك المسلمين، حيث كان إذا ولي منهم ملك قدّم إليه خاتم و سيف و مصحف يزعمون أن الخليفة أمير المؤمنين في المشرق الإسلامي هو الذي بعث به إليه**68**، في محاولة لعطاء حكمهم الصبغة الشرعية.فنجد أن ملك سونغاي في عهد الاسقيين الحاج محمد التوري ، بعد سقوط دولة المماليك في مصر حاول أن يأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، و هو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب، و ذلك خلال زيارته للبقاع المقدسة بغرض الحج في أواخر عام 900هجرية/1494م عندما مرّ بمصر ، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول. فاجتمع الاسقيا الحاج محمد التوري بالخليفة العباسي المتوكل الثاني، و طلب منه أن يأذن له بإمارة السودان، و يكون خليفته عليها، وأدعى الحاج محمد توري بأن الخليفة العباسي جعله نائبا له على ما وراءها من المسلمين. و لما عاد ملك سونغاي إلى بلده أقام حكمه على قواعد ا لشريعة الإسلامية.**69**

أما أمير مدينة جني الواقعة على ضفاف نهر النيجر الأعلى، و التي تأسست في منتصف القرن الثاني للهجرة8م، فإن أميره المسمى " كنبر"هو أول من اسلم من ملوكها خلال أواخر القرن الخامس للهجرة/11م، و كان ذلك في عهد المرابطين و حذت حذوه رعيته التي اكتمل إيلامها في نهاية القرن السادس للهجرة/12م.**70** ز عندما عزم هذا الملك على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة، فحصل منهم على أربعة آلاف و مائتان عالما فأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعوا الله بثلاث دعوات لتلك المدينة، و هي أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة و يسرا حتى ينسى وطنه ذلك،و أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحوا بها، فقرؤوا الفاتحة في هذه

الدعوات.71 كما قام بتخريب دار السلطنة و حولها إلى مسجد، كما بنى بيوتا حوله.72

ويرجع إسلام أول ملوك السودان الأوسط إلى القرن الخامس للهجرة/11م مع تحول ملك الكانم إلى الإسلام ، إذ دخل أولا الإسلام إلى إقليم بورنو على يد "محمد بن ماني " الذي عاش خمس سنوات في بورنو في عهد الملك بولو ، و أربع عشرة سنة في عهد الملك حمادي ، و ضم بورنو إلى الإسلام بفضل الملك حمادي و نشر الملك محمد بن ماني الإسلام في الخارج. و تجدر الإشارة إلى أنه في عهد أسلاف حمادي(بداية القرن الخامس للهجرة/11م) كان يعيش في بلاطهم عدد من علماء الدين المسلمين، يلقنون الحكام أنفسهم تعاليم الإسلام، و يدرسون معهم آيات من القرآن73، و لكن لا احد من الملوك كان يجاهر بإسلامه. لذلك لما تحدث عنهم البكري (منتصف القرن الخامس للهجرة/11م)و صف ملوك كانم بأنهم سودان مشركون.74

و مهما يكن فإن هذه النماذج من الملوك السودانيين الذين تقمصوا دور الدعاة في بلادهم، كانوا في اغلبهم على قدر مهم من الوعي الديني، و فهم للإسلام، رغم أنهم لم يكونوا يرقون إلى درجة الفقهاء أو العلماء ، ولكنهم كانوا يتميزون بقوة إيمانهم و بحماسهم ، و بعضهم بلغ درجة التعصب لهذا الدين، و فهموا دورهم باعتبارهم ولاة أمور يقع على رقابهم مهمة تبليغ هذا الدين و الحفاظ عليه، فراحوا يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، و يحتكمون شريعة الله ، و يقيمون العدل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويدعون إلى الله و يجاهدون في سبيله.لكننا نرى بأن بعض الملوك الأوائل الذين دخلوا الإسلام كان منهم من كان قليل المعرفة بالإسلام، و منهم من كان يخفي إسلامه عن قومه، أو تجده متسامحا بدرجة كبيرة مع رعاياه غير المسلمين فكانوا يراعون تقاليد شعبهم الوثنية و موروثاتهم الدينية القائمة على السحر و عبادة الأوثان و تقديس أرواح الأجداد، رغم ما اشتهر عن هؤلاء الملوك من إيمان و تقوى، فلقد كان هؤلاء الملوك يعرفون كيف يحافظون على تماسك مجتمعاتهم التي كانت تتحكم فيها الانتماءات العشائرية و الطائفية أكثر من أي عامل آخر، و لدينا في إمبراطور مالي سوندياتا كيتا نموذج على ذلك التسامح الذي كان يبديه إزاء مواطنيه من الوثنيين، و هو ما فتح المجال أمام بعض المؤرخين الغربيين للتشكيك في مسألة

أسلامه أصلا رغم شهادة ابن بطوطة بإسلامه، و كذا تعاليمه و شرائعه التي كانت تحمل الكثير من تعاليم الإسلام في طياتها. كما ورث ذلك الجيل من الملوك خلفاء أعطوا نماذج هائلة في للملوك المسلمين الداعين لدينهم و المجاهدين في سبيله، خاصة خلال فترة الاحتلال الأوربي لإفريقيا الغربية أين ظهر لنا في مسينا الحاج عثمان بن فودي أو (دان فودي) الذي أعان عن مشروعه سنة 1223 هجرية/ 1809 م، فأعاد بعث الإسلام ونشره بين القبائل الوثنية، في شتى أرجاء القارة السوداء، كما عمل على إعادة بناء الدولة الإسلامية من جديد، وتوسيع رقعة الإسلام بالجهاد ضد القبائل الوثنية التي اجتمعت على حرب الإسلام ودعوته الجديدة. و اتبع إستراتيجية الجهاد على عدة محاور، وضم الشعوب الإسلامية تحت رايته، فضم إليه عدة شعوب وقبائل مسلمة كانت متناثرة ومختلفة فيما بينها، و توسع في الغرب والجنوب الغربي، حيث قبائل 'اليوروبا' الكبيرة، فدانت له هذه القبائل ودخلت في دعوته، وأخذت دولته الإسلامية في الاتساع شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت أقوى مملكة إسلامية في إفريقيا وقتها. بالإضافة إلى حركة تلميذه الحاج عمر طال(1799ــ 1864م/1214ــ 1281هــ) في نيجريا، و الشيخ ساموري توري و غيرهم، الذين يعود لهم الفضل ليس في نشر الإسلام فقط بل أيضا في نشر الوعي الوطني و القومي في إفريقيا، و في الحفاظ على الشخصية الإسلامية لإفريقيا السوداء جنوبي الصحراء.

الهوامش:

[1] ــ أنظر: أحمد الياس: دور فقهاء الاباضية في إسلام مملكة مالي . جامعة الخرطوم. موقع الكتروني:

Www . nafosa-net.com/vb/showthread.php?t=19865 اطلع عليه يوم: 2010/11/21

ــ أنظر أيضا: نبيلة حسن محمد: في تاريخ الحضارة الإسلامية في إفريقيا. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دون تاريخ، ص 257 و ما يليها.

[2] ــ إن مصطلح السودان الغربي والأوسط هما مصطلحان يطلقان على إفريقيا الغربية و جنوب الصحراء الليبية

[3] -Trimingham (Spencer): A history of Islam in West Africa. Oxford university press، 1962، p20.

[4] ـ يذكر البكري(1014م/404 هـ –1094م /487 هـ) بأن بني أمية قد أنفذوا جيشا وصل إلى مملكة غانة لفتحها، و استقروا هناك أين خلفوا قوما يعرفون بالهنيهين. ـ أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص179.

لكن الراجح هو أن لفتوحات الإسلامية وصلت إلى تخوم السودان فقط حسبما يذهب إليه ابن عبد الحكم، الذي عاش في فترة أقرب إلى تلك الأحداث (214-155هـ/ 771- 829م) حيث يقول: ((و فتحهم لكورة من كورهم)ـ أنظر ابن عبد الحكم:فتوح مصر و المغرب. تحقيق: عبد المنعم عامر، القاهرة، 2001، ص 293.

5 ـ نبيلة محمد حسن:المرجع السابق، ص 265.

[6]ـ تعد مدينة أودغست إحدى أهم المحطات التجارية للقوافل العابرة للصحراء، و هي إحدى المدن السودانية التي كانت محل نزاع بين إمبراطورية غانة و صنهاجة، حيث تعد بوابة السودان الغربي، و تكون هذه المدينة قد تأست حوالي القرن الأول للهجرة/6م.

[7] *-Trimingham (Spence):Op.Cit ، p20.*

8 ـ البكري: المصدر السابق، ص159.

[9] ـ الزهري(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر):كتاب الجغرافيا. تحقيق: محمد حاج صادق. مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، د ـ ت، ص 22.

10ـ نبيلة محمد حسن: المرجع السابق، ص279.

11 ـ نفسه، ص28

12 ـ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس. تحقيق:كارل يوحنا نورمبورغ، دار الطباعة المدرسية أوبسالة،1832، ص 76.

13 ـ شوقي(عطا الله الجمل) و عبد الله(عبد الرازق إبراهيم):تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم.دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1996، ص87.

14 - نفسه، ص 87.

15- أحمد إلياس، المرجع السابق.

16ـ م.الفاسي : مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام: الجلد الثالث من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر ـ صادر عن اليونسكو، طبعة ثانية،مطبعة حبيب درغام و أولاده، بيروت، لبنان، 1997، ص91

17ـ نفسه، ص91

18 ـ انظر الدرجيني(أبو العباس): طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق:إبراهيم طلاي ، دون تاريخ، جزء2.

19 ـ قداح(نعيم): حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية لطباعة و النشر، الجزائر،1975، ص96.

20 ــ م الفاسي، المرجع السابق، ص 91.

21 ــ نفسه،ص98.

22 ــ مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية.تصحيح :البشير الغورتي، مكتبة التقدم الإسلامية،تونس، د ت ،ص17.

23 ــ دندش(عصمت عبد اللطيف): دور المرابطين فينشر الإسلام في غرب إفريقيا.بين 430 و 515هـ/1038 و 1121م،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان،1988،ص112.

24 ــ نفسه، ص 114

25 - الحلل الموشية، ص7

26 ــ دندش عصمت عبد اللطيف: المرجع السابق،ص112

27 ــ شنايت(العيفة): دولة بني مدرار بسجلماسة ،ودور تجارة القوافل في ازدهارهاـ بين القرنين الثاني و الرابع الهجريين ــ. رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ــ جامعة الجزائر ــ السنة الجامعية:1410 /1411هـ /1990 /1991 م، ص 13.

28 ــ انظر: ابن الصغير(المصدر السابق،ص81.

29 ــ جودت (عبد الكريم يوسف): العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص272.

30 ــ لومبار(موريس): الإسلام في مجده الأول.(القرن2 ــ 5 هـ/8 ــ 11م).تحقيق و تعليق: إسماعيل العربي، الجزائر، طبعة1، 1975، ص336.

31 ــ المصدر السابق، ص 175.

32 ــ كان يحكم مملكة غانة ملوك من أسرة سيسي السوننكية التي انتزعت الحكم من أسرة بيضاء كانت تحكم غانة قبلها، و قد استمر حكم أسرة سيسي من نهاية القرن الثاني للهجرة/8م إلى غاية القرن السابع للهجرة/13م ــ جون فيج: تاريخ غرب إفريقيا. ترجمة: سيد يوسف نصر، دار المعارف الإسكندرية، طبعة أولى، 1982.ص 16. -

33 ــ المصدر السابق، ص 175.

34 ــ نفس المكان.

35 ــ م. الفاسي، المرجع السابق، ص99

36 ــ هو نفسه الملك الذي ذكره ابن خلدون و دعاه" برمندانه". ــ أنظر:كتاب العبر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2000، ج6، ص 266.

37 ــ البكري: المصدر السابق، ص 178.

38 ــ الدرجيني(أبو العباس أحمد بن سعيد): طبقات المشايخ ،ص137.

39 ــ أخبار الأئمة الرستميين،ص81.

40 ــ البكري: المصدر السابق، ص 179.

41 ــ م.الفاسي نقلا عن برنار لويس: المرجع السابق، ص 132.

42 ــ البكري: المصدر السابق،ص168.

43 ــ م . الفاسي: المرجع السابق، ص 101.

44_ Cornevin (Robert et Mariane) : Histoire de l'Afrique. Des origines à la 2éme guerre mondiale. Petite bibliothèque Payot، Paris، 1964، pp161 et163

45 ــ المصدر السابق، ص168

46- Trimingham (Spencer): Op Cit; p41.،

47 ــ سيلا(عبد القادر): المسلمون في السنغال، معالم الحاضر و آفاق المستقبل. سلسلة كتاب الأمة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية لدولة قطر، طبعة أولى، 1406هــ، ص ص 20، 21 و22.

48 _Cornevin :Op.Cit، p161

49 ــ البكري:المصدر السابق،ص168.

50 ــ نشير هنا إلى أن شهرة بلاد التكرور جعلت المصادر العربية عندما تذكر بلاد السودان تقول بلاد التكرور. ــ أنظر : العمري(أبو الفضل):مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة،2002م، ص 105.

51 ــ دكاكير جمع دكور وهي الأصنام.

52 ــ البكري: المصدر السابق، ص 172.

53 ــ نفس المكان.

54 - *DElafosse (Maurice) : Haut Sénégal _ Niger. Les peuples، les langues، les civilisations. Emile larose librairie، Paris، 1912، tome2، pp 235 et 236.*

55 _ *Trimingham (Spencer): Op Cit، p46.*

56 _ Youssouf tata cissé et Wakamissoko : La grande geste du Mali، tome 2، édition Karthala-Arsan، paris، 2009، p43 à73.

57 ــ أنظر:*Delafosse(Maurice) :Haut Sénégal_ Niger، Toëe2mpp161 a 181*

58 ــ العبر، ج6، ص266.

59 ــ يعد " ماري جاطة" أو " سوندياتا" أشهر ملوك مالي، حيث يعد مؤسس إمبراطورية مالي عام 1235م بعد انتصاره على ملك الصوصو في معركة كيرينا.

60 ــ العبر، ج5، ص 496.

61_ *Kati (Mahmoud): Tarikh el fettach. Traduction: O.Haudas et M: Delafosse. Éditions : Ernest Leroux éditeur، Paris، 1913، pp de 55 au 59.*

62 ــ العمري: المصدر السابق، ص105.

63 ــ نفسه:ص120.

64 ــ حول هذه الطائفة أنظر:ابن سعيد:كتاب الجغرافيا. تحقيق:إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص91.

65 ــ ابن بطوطة(محمد بن إبراهيم اللواتي): الرحلة، دار صادر،1992،ص290.

66 _ Kati (Mahmoud) : Op. Cit.، p111.

67 ــ دافيد سون(باسيل):إفريقيا تكتشف من جديد.ترجمة: نبيل بدر و سعد زغلول.الدار القومية للطباعة و النشر، مصر، د..ت ص 254.

68 ــ البكري:المصدر السابق، ص182.

69 ــ التازي(عبد الهادي): المغاربة في خدمة التقارب الإفريقي العربي.ضمن كتاب: العلاقة بين الثقافة العربية و الثقافات الإفريقية، إعداد و نشر:يوسف فضل حسن، تونس منظمو اليونسكو، 1985، ص106.

70 ــ السلاوي(الناصري): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى. تحقيق و تعليق:جعفر ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج1، ص48.

71 ــ السعدي(عبد الرحمان): تاريخ السودان. نشر:هوداس،المكتبة الأمريكية و الشرق، ميز ونوف، باريس، 1981، ص 132.

72 ــ نفس المكان.

73- ايفان هربك: انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء.ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، جزء الثالث، ص ص 95 ، 96.

74 ــ المصدر السابق، ص11